جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

التناسب البيانيّ في النظم القرآني:
دراسة بلاغيّة لحركة المعنى في سورة القدر

إعداد

ذكر الله عيسى حسين (الزبوريّ)

باحث الماجستير بكلية الآداب، قسم اللغة العربيّة وآدابها، جامعة ولاية كوارا، مليتي نيجيريا

(العدد السابع والثلاثون)

(الإصدار الرابع .. نوفمبر)

(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

التناسب البيانيّ في النظم القرآني: دراسة بلاغيّة لحركة المعنى في سورة القدر

ذكر الله عيسى حسين (الزبوريّ)
باحث ماجستير بقسم اللغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب، جامعة ولاية كوارا، مليتي نيجيريا.
البريد الإلكتروني: dhikrullahiissahusain@gmail.com

الملخص:

من الوجوه الإعجازيّة في النظم القرآني وجودُ صلاتٍ حميميّة بين سلسلاتٍ من القضايا المختلفة داخل السورة، وهذه الصلات اصطلح عليها البلاغيّون بالتناسب أو المناسبة، والتناسب دوحة ذات أغصان متنوّعة، من بينها دراسةُ حركة المعنى وهي متابعة المعنى لاستكشاف مبعثه، ونموّه، وذهابه وارتداده، وإشراقه وسكونه متابعةً تتبيّنُ من خلالها الوشائج والصلات بين موضوعات السورة من وجه، وبين الموضوعات والغرض من وجه آخر؛ فيُعرف كيف تتناسل المعاني، وكيف تتنادى، وكيف تأخذ بعضها بأعناق بعض. وتتيمّم هذه الدراسةُ سورةَ القدر؛ لتتابع حركة المعنى داخلها؛ فيتبيّن ما فيها من تَنَادِي المعاني، وتَدَاعِي الموضوعات، وتماسُك القضايا، وما به انبعثت الحركة، وما عليه نمت، وما عنده أشرقت، وما به تحدّرت، وما عليه حطّت رحالها، وهذه الحركةُ وجريانُها في محطّاتها المختلفة من الإعجاز البلاغيّ في النظم القرآني. هذا وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تتخذ المنهج التحليلي منهجا للمعالجة.

الكلمات المفتاحيّة: التناسب، حركة المعنى، سورة القدر، العلاقة، المقصد.

The graphic proportionality of the Quranic systems: a rhetorical study of the movement of meaning in Surat Al - Qadr

Dhikrullahi Issa Husain (azzabūriy)
Faculty of Art, Kwara state University Malete.
Email: Dhikrullahiissausiain@gmail.com

Abstract:
One of the miraculous aspects of the Qur'anic system is the existence of intimate connections between series of different issues within the surah. These connections are called by rhetoricians as proportion or suitability. Proportion is a tree with diverse branches, including the study of the movement of meaning, which is following the meaning to explore its origin, growth, departure and regression, its radiance and stillness, following through which the bonds and connections between the topics of the surah on the one hand, and between the topics and purpose on the other hand, are revealed. Thus, it is known how meanings reproduce, how they are called out, and how some of them take hold of each other's necks. This study completes Surat Al-Qadr to follow the movement of meaning within it. It reveals the interconnectedness of meanings, the association of topics, the coherence of issues, the means by which the movement was launched, the means by which it grew, the means by which it shone, the means by which it descended, and the means by which it settled. This movement and its flow in its various stations are among the rhetorical miracles in the Qur'anic system. The nature of the study required that the analytical method be adopted as a method for treatment.

Keywords: Al-Tanāsub (suitability), Movement of meaning, Suratul-Qadr, Relationship, Purpose.

مقدمة

النظم القرآني نظمٌ عميقٌ غورُه، دقيقٌ مسلكُه، غنيٌّ بالمعاني اللطيفة، سخيٌّ بالدلالات العجيبة، لا يخوض غمراته إلا مَن مُنِحَ علمًا نافذا على فلي القشرة عن لبّها، ورُزقَ طبعا بصيرا بأسرار القول، عالما بضروب البيان؛ ذلك أن القرآن تنزيل من حكيم حميد بلسان عربي مبين. ولقد كثرت حول بلاغة هذا النظم البديع دراساتٌ كثيرة، ومن أدقّها مسلكا دراسةُ حركة المعنى داخلَ السورة؛ لأنها – كما يقول شيخنا أبو موسى – من أخفى أبواب بلاغة القرآن وأغمضها، ومن وجوه بلاغة القرآن غير المدروسة كما ينبغي. ويُقصَدُ بدراسة حركة المعنى مراقبةُ نموّه وامتداده وذهابه وارتداده، ورحلتِه من شاطيء المطلع إلى شاطيء الخاتمة، ومتابعةُ حركته للوقوف على متى انبعث، ومتى كان ضوءً خافتا، ومتى أشرق، ومتى أضاء كالشمس في ضحاها، ومتى سار سيرا حثيثا، ومتى تحدّر، ومتى حطّ رحاله، ويُتَابعُ هذا كلُّه؛ لِاستكشاف التناسب البياني بين سلسلاتٍ من القضايا والموضوعات التي تناولتها السورة، ولِوَضْعِ الْبَنَانِ على علاقة كلّ موضوع من موضوعات السورة بحركة المعنى؛ فيعرف مِن بين هذه الموضوعات ما به انبعث المعنى، وما به أضاء، وما عليه عبر إلى الإشراق، وما به تحدّر إلى السكون، وما عنده حطّ رحاله. وتأتي هذه الدراسة لتتناول سورة القدر فتتابع حركة المعنى فيها لِتستكشف مجرى الحركة في صعودها وهبوطها. وقد وقع الاختيار على هذه السورة لقِصَرها الذي تتحدّد به الدراسةُ، وتكمن أهميّة الدراسة في أنها مُحَاوَلَةٌ متواضعة لِطرق بابٍ إعجازيٍّ لم يُطرق من قبل كما ينبغي، هذا وقد اتخذت الدراسةُ المنهجَ التحليلي الكليّ منهجا للمعالجة، وتدور حول محاور تالية:

– تمهيد: بين يدي السورة

– مفهوم التناسب وحركة المعنى

–تحديد غرض السورة وإحصاء موضوعاتها

–تَأَمُّلٌ بَلَاغِيٌّ لمطلع السورة وعلاقته بحركة المعنى

–التشويق إلى ليلة القدر وعلاقته بحركة المعنى

–إيضاح التشويق وعلاقته بحركة المعنى

ثمّ تأتي الخاتمة لتلخّص أهمَّ ما توصَّلتْ إليه الدراسةُ، وأهمَّ النتائج والتوصيات، والله الموفّق، وهو حسبي ونعم المولى ونعم النصير.

تمهيد

بين يدي السورة

﴿سُورَةُ ٱلقَدرِ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥

وقعت هذه السورة بين سورة العلق وسورة البيّنة في ترتيب المصحف الشريف وهي بذلك السابعة والتسعون، وأما في ترتيب النزول فقد أورد السيوطي عن البيهقي أنها نزلت بعد سورة عبس، وهي بهذا الترتيب الخامسة والعشرون(١) وقد اختلف العلماء في نزولها فقال بعضهم: إنها مكيّة والآخر مدنيّة إلا أن أكثر العلماء على أنها مكية.(٢) وعدد آياتها خمس، في العد المدني والبصري والكوفي، وست في العد المكي والشامي.(٣) وفي سبب نزولها روي أن النبي (ﷺ) ذكر رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فتعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله تعالى: "إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر" قال: خير من التي لبس فيها السلاح ذلك الرجل"(٤) وروى الإمام مالك في سبب نزولها أن رسول الله (صلى الله عليه

---

(١) الحافظ جلال الدين السيوطي، *الإتقان في علوم القرآن*، القاهرة: دار الحديث ط١ (٢٠٠٦) جـ ١ ص ٥٢

(٢) المرجع السابق، ج١ ص ٦٢.

(٣) الإمام ابن عاشور، ***التحرير والتنوير***، تونس: دار سحنون للنشر، م١٢، ص ٤٥٥

(٤) أبو الحسن علي الواحدي، ***أسباب النزول***، السعودية: دار الإصلاح –الدمام، ط٢ (١٩٩٢) ص ٤٦١

وسلم) "أري أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم من طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر".[١]

وأما مناسبتها لما قبلها فمناسبة التفصيل للإجمال؛ فذلك أنه ورد في صدر سورة العلق أمرُ النبيّ بالقراءة، وورد في نهايتها أمرُه (ص) بالسجود والاقتراب، ومن ثَّمَ جيء بسورة القدر؛ لبيان ما يقرأه النبي (ص) وما يقترب به وهو القرآن الذي أنزله الله في ليلة القدر، وبيّن فضله، ونوّه بشأنه، ورفع من قدر زمان نزوله؛ فهذه السورة تتناسب مع ما قبلها باعتبارها بيانا للإجمال الوارد فيها؛ فإذا كان المقروء مجملًا في سورة العلق فسورة القدر تأتي شارحة ومفصلة له، وإذا كان المقترب به مطويا ذكرُه في سورة العلق، فهو في سورة القدر مذكورٌ ومنصوصٌ عليه، وإذا كان الطاغي في سورة العلق استغنى عن القرآن بماله، ونهى عن القرآن والصلاة، فلم يعرف قدره وفضله، فإن سورة القدر جاءت لتُنَوِّهَ بفضل القرآن وتُعلي من ليلة إنزاله، فهذه السورة تفصيل وبيان لما قبلها. وأما مناسبتها لما بعدها فهي أن سورة البينة أتت لتوبيخ المشركين على تكذيبهم بالقرآن بعد أن عرفوا فضله وعرفوا أنه البينة، ولمدح المؤمنين الذين آمنوا بالقرآن ووصفِهم بأنهم خير البرية، فالعلاقة بين السورتين واضحة إذ البينة امتداد للقدر.

وسمّيت السورة بسورة القدر "لأنها تكسب من أحياها قدرا عظيما لم يكن له من قبل، وتردّه عظيما عند الله، وقيل سميت بذلك لأن كل العمل فيها له قدر وخطر، وقيل لأنه ينزل فيها الملائكة ذات قدر.[٢]ومن فضائل هذه السورة أنها من أوائل ما نزل على النبي (ص) وأوائل السور تحمل سمات الدعوة إلى أصول

(١) القاضي محمد بن العربي، ***أحكام القرآن***، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣ (٢٠٠٣) جـ ٤– ص ٤٢٨

(٢) أبو حيّان محمد بن يوسف، ***البحر المحيط***، بيروت: دار الفكر، جـ ١٠ ص ٥١٤.

الدين، وهذه الأصول لا تثبت إلا إذا ثبت القرآن الذي هو أصل الأصول؛ فالسورة التي بين يدي الدراسة أصل لأصول الدين لأنها تناول القرآن، فأثبت مصدره، ونوّه بفضله وبفضل ليلة نزوله. ومن فضائل هذه السورة أن الله جل شأنه أنعم بها على أمة النبي؛ لتكون عوضا لها عن تقاصر أعمارها ألا تبلغ من العمل مثل ما بلغ غيرها في طول العمر.

المحور الأول: مفهوم التناسب وحركة المعنى

السورة القرآنيّة على كثرة آياتها وتنوّع موضوعاتها ترمي إلى معنى واحد، وهذا المعنى أطلق عليه البلاغيّون "الغرض أو المقصد"، وعلى تجلية هذا المعنى تتظاهر المعاني الجزئيّة، وعلى بنائه تتآزر الموضوعات الفرعيّة، وعلى إقامة صرحه تتناسق الكلمات والتراكيب؛ فيجب أن يكون بين هذه المعاني الجزئيّة وتلك الموضوعات الفرعيّة خيطٌ بيانيٌّ دقيقٌ يربط بين أجزائها، ويلملم بين شتاتها؛ فيجعلها متماسكةً ومتراصّة لا اختلالَ فيها ولا تفكُّك، وهذا الخيط البيانيّ الرابط هو المقصود بالتناسب في النظم القرآني، وكلمة التناسب في اللغة تعني التشاكل، يقال تناسب الأمران آي تشاكلا[١] والتناسب كما عرّفه الإمام برهان الدين البقاعي في نظم الدرر "عِلمُ ترتيب أجزاء القرآن وسرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"[٢] وعرّفه الدكتور مناع خليل القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن بأنه "وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة

(١) نخة من اللغويين بالمجمع، ***المعجم الوسيط***، القاهرة: مكتبة الشروق، ط٥، (٢٠١١) ص ٩٥٤

(٢) البقاعي برهان أبو الحسن إبراهيم ***نظم الدرر في تناسب الآي والسور***، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ص:٥.

والسورة"[١] فالتناسب عِلمٌ بيانيّة لطيفة تتناسق بها المعاني القرآنيّة، ويلتئم بها التأليف القرآني؛ فيصير بديعا محكما يأخذ بعضُه بأعناق بعض.

والناظر في السورة القرآنيّة يجدها ذات موضوعاتٍ متنوّعة فيحسب أنها تناولت أغراضا متعدّدة، والأمر خلاف ذلك؛ وذلك أن السورة الواحدة لا ترمي بآياتها إلا إلى غرض واحد، وأما ما في السورة من المعاني الجزئية فموضوعاتٌ لا أغراض، وعن هذا يقول العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم: "إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخرُه بأوّله، وأوّلُه بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضُها ببعض في القضية الواحدة... فإذا بدت السورة الطويلة أضغاثا من المعاني فهي لو تدبرت بِنيةٌ متماسكة قد بُنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتدّ من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلا، والمختلف مؤتلفا.[٢] وإذا كانت السورة في القرآن تتعدّد قضاياها، وتتنوع موضوعاتها، وتختلف معانيها فمن الإعجاز أن تلتئم هذه السلسلات من المعاني

(١) الشيخ مناع القطان، ***مباحث في علوم القرآن***، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط١١ (٢٠٠٠)، ص٩٢.

(٢)الدكتور عبد الله دراز، ***النبأ العظيم، ص ١٣٤ – ١٣٧بتصرف.***

المختلفة وأن تتلاحق هذه الفصول من القضايا المتنوعة، وهذا التلاؤم بين هذه القضايا هو المقصود بالتناسب في اصطلاح البلاغيين.

وقد عدّ القاضي الباقلاني التناسب وجهًا من الوجوه الإعجازية في القرآن حيث ذكر أنه "ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر وإنما تُنسَب إلى حكيمهم كلماتٌ معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبيّنه بعد هذا من الاختلال"(١) فكلام العرب الذي تفتخر به محدودٌ ومحصور وفيه ما فيه من الاختلاف والاختلال، وأما القرآن – على كثرة معانيه، وتنوّع قضاياه، وطول ما تناوله من وجوه القول – فمُتَنَاهٍ في التماسك والتناسب لا يتخلّله فتورٌ ولا يعرض له تفكُّك.

وأما مفهوم حركة المعنى فمراقبة تصرّفِه عند مبعثه، وتدرُّجِه إلى إشراقه، ونموِّه وامتدادِه، وذهابِه وارتدادِه، ورحلتِه من شاطيء المطلع إلى شاطيء الخاتمة، وكيف تحرَّكَ وتنَاقَل، وكيف انتهى إلى النقطة التي بدأ منها، وكأنه يطوف حول الأرض، ويقطع السير إلى الأمام وإلى الخلف في خطوة واحدة، يولّي وجهه نحو الشرق ليصل إلى نقطةٍ في الغرب، ويسعى إلى الأمام ليقترب من الوراء.(٢) وعرّف أستاذنا الدكتور إبراهيم الهدهد هذا المصطلح بأنه :"مراقبة متى انبعث المعنى، ومتى كان ضوءً خافتا، ومتى أشرق، ومتى أضاء كالشمس

(١) الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب، ***إعجاز القرآن***، القاهرة: دار المعارف، الطبعة السابعة، ص: ٣٦.

(٢) أ.د محمد أبو موسى ***من أسرار التعبير القرآني***، القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ص٤٣ بتصرف

في ضحاها، ومتى سار سيرا حثيثا، ومتى تحدّر، ومتى حطّ رحاله"[١] فالذي يتابع بوعيٍ حركة المعنى في السورة يراقب كيف تتنادى المعاني، وكيف تتداعى الموضوعات، وكيف تُسلِم بعضُها إلى بعضٍ، وكيف يتّجه كلٌ منها ناظرا إلى الغرض، وكيف يقع كل منها موقعَه اللاحق، وكيف تسير المعاني في خط الحركة مُقبلةً ومدبرةً، ناميةً وممتدةً، وكيف أبْحَرَ المعنى من شاطيء إلى شاطيء.

ودراسة حركة المعنى داخلَ السورة تتّجه أولا إلى تحديد غرض السورة وإحصاء موضوعاتها وقضاياها، واسكشاف أسرار المطلع والخاتمة؛ وذلك أنّ على هذه الخطوات الأوليّة تبني الدراسةُ صرحَها.

المحور الثاني: تحديد غرض السورة وإحصاء موضوعاتها

تحديدُ غرض السورة أمرٌ دقيقٌ لا يعطي مقادَه إلا للمتدبّر الحصيف، ولا يُنال إلا بطلبٍ واجتهادٍ، وصبرٍ؛ ذلك أنّ عليه كِمًّا يُفتَقر إلى شقِّه بالتفكير وبالنظرة المتدبِّرة، إلا أنّ البلاغيّين وضعوا وسائل معينة على الوصول إلى هذه الغاية، كما نصبوا سراجا وهّاجا ينير الطريق إلى هذا المنعطَف الشاهق وهذه الوسائل متكاملة تشدّ بعضُها بعضا وهي:

أ- تسمية السورة: تسمية السورة بجزء منها من المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية من تسمية الكل باسم الجزء، وقد اشترطوا للجزء أن يكون له مزيد خصوصية، وهذه الخصوصية تكون بدلالته على المقصد الأصلي للسورة [٢] فتسمية السورة بدلالتها مشعل يهدي إلى المقصود الأصلي للسورة.

---

(١) الدكتور إبراهيم الهدهد، ***حركة المعنى في سورة الفجر***، القاهرة: مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى، ص:٥.

(٢) الدكتور إبراهيم الهدهد، ***علاقة المطالع بالمقاصد***، ص ٥٦٩ بتصرف.

ب- حصر المعجم اللغوي للسورة: من الوسائل الهادية إلى تحديد المقصود من السورة جمع المفردات الخاصة بالسورة؛ لأن المفردات الخاصة بالسورة، تكون معلما على المقصد الخاص بها، ولكل سورة معجمها اللغوي الذي تمتاز به عن نظائرها طالت أم قصرت[١] ومن ثم كان حصر الألفاظ الخاصة بالسورة واستكشاف مراميها من المجاز الذي يُعبَر عليه إلى تحديد غرض السورة.

ج- إحصاء الموضوعات: إحصاء الموضوعات التي وقعت في السورة من الوسائل الهادية إلى مقصد السورة؛ لأن الموضوعات لبناتٌ يبنى منها المقصد، فلا بد أن تكون بين الموضوعات والمقصد وشائجُ وصلاتٌ تجعل الموضوعاتِ تحنُّ إلى المقصد، ويجب التنبّه عند إحصاء الموضوعات إلى أن الموضوعات المشتركة يجب تحليلها وموازنتها بغيرها بيقظة وبصبر دائب لتحديد الغرض بدقة بالغة. [٢]

د- تأمل تراكيب المطلع، فإن المطلع يُجمل المقصد الذي تتظاهر عليه تراكيبُ السورة، والبديع أنك ترى في كثير من السور أن ما جاء عمدة في تراكيب المطلع جاء عمدة في السورة، وأن ما جاء تابعا في المطلع وقع كذلك في السورة[٣] فمطالع السور مشاعل تحمل النور لضيء جوانب السور وتعمها بالسناء.

---

(١) الدكتور إبراهيم الهدهد، ***علاقة المطالع بالمقاصد*** ص ٥٧١ بتصرف.

(٢)المرجع السابق ص ٥٧٤ – ٥٧٨

(٣)الدكتور إبراهيم الهدهد، ***حركة المعنى في سورة الفجر***، القاهرة: مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى، ص:١٢.

هـ – تأمُّل تراكيب الخاتمة: لا غناء في تحديد الغرض من استكشاف أسرار الخاتمة للعلاقة الوثيقة بين المقاصد والخواتم، فالخواتم هادية إلى المقاصد.(١)

وقد استعانتِ الدراسةُ بهذه الوسائل مجتمعةً وبكلام الأئمَّة المفسرين فانتهت إلى أنَّ غرض السورة التنويهُ بفضل القرآن؛ وبيان ذلك أن تسميّة السورة بالقدر توحي بالفضل والشرف؛ لأنّ القدر الذي عُرِفَت الليلةُ بالإضافة إليه هو بمعنى الشرف والفضل، فليلةُ القدر هي ليلة الفضل والشرف، ولم تكن هذه الليلة لتنال هذا الفضل وذلك الشرف لولا أن أنزل فيها القرآن، فالفضل الذي تحويه تسمية السورة تعكس فضل القرآن الذي هو الغرض، فالتسميّة بدلالتها أجملت مقصد السورة، وأما المعجم اللفظي للسُّورة فهي كلمة "ليلة القدر" التي أعيد ذكرها ثلاث مرات، وهي بمضمونها ترمي من طرف غير خفيّ إلى التنويه بهذه الليلة والرفع من شأنها؛ ليَترتَّب على ذلك التنويهُ بفضل القرآن الذي لابس نزولُه هذه الليلةَ فباركها، ولا يخفى أنّ تكرار هذا المعجم اللفظي (ليلة القدر) يحمل الإشارة إلى إعلان هذا الفضل وإذاعته، كما يحمل التكرارُ الدلالةَ على تقريرِ هذه الليلة في القلوب، ويُلاحظ أن المعجم اللفظي دلّ على فضل القرآن بإضافة ليلة إنزاله إلى القدر الذي يعني الشرف والفضل، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن القرآن بلغ من الفضل غايته؛ فكان من ذلك أن تكون الليلة التي صادفت إنزاله ليلةً ذات قدر وفضل وشرف. وأما موضوعات السورة فهي أيضا تؤكد القول بأن مقصد السورةِ التنويهُ بفضل القرآن؛ ذلك أن السورة ذات موضوعين اثنين هما:

- الإخبار عن إنزال القرآن وعن مصدره وعن الوقت الذي أنزل فيه

(١) الدكتور إبراهيم الهدهد، ***مدخل إلى البحث البلاغي***، القاهرة: مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى، ص٥٣.

- الرفع من شأن الليلة التي أنزل فيها بنزول الملائكة فيها، وتفضيلها على ألف شهر، وسلامتها من كل شر إلى مطلع الفجر.

وهذان الموضوعان ينصّان في صوت جهير بالتنويه بفضل القرآن، ثم إن مطلع السورة بتراكيبه ينبئ عن عظمة مصدر القرآن وعلوّه ووقت إنزاله، وذلك تنويهٌ بفضل القرآن ليس إلا. وأما تراكيب خاتمة السورة ففيها رمز إلى رسالة القرآن التي هي السلام والنور، والقرآن كلُّه سلام من ظلمات الجهل والضلالة إلى نور العلم والهداية، وهكذا تأخذ الحجّة بعضُها بحجزة بعض ليطمئنّ القلبُ بأن غرض السورة التنويهُ بفضل القرآن العظيم. ومما يؤكّد القول بأنّ مقصد السورة التنويهُ بفضل القرآن ما قاله الإمام الزمخشريّ في إجمال موضوعات السورة، يقول رحمه الله تعالى: "عظَّم الله القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه أسند إنزاله إليه، وجعله مختصا دون غيره، والثاني: أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه"[1] فبهذه الدلائل المتآزرة والحجج المتناصرة يبدو غرض السورة واضحا وضوح الشمس في ضحاها.

موضوعات السورة:

موضوعات السورة القرآنيّة تتألّف من المعاني؛ فإذا تصافحت المعاني وتآلفت أصبحت موضوعا؛ فمن المعاني تتألّف الموضوعات، ومن الموضوعات تتألّف السورة، هذا وللمعاني التي يتألّف منها الموضوع القرآني نَسَقٌ عجيب من النّظم حيث تكون لها أطرافُ تُشبه المقدمةَ والمقصد والخاتمة، والسورةُ التي بين يدي الدراسة ذات موضوعين اثنين هما:

- الإخبار عن القرآن

(١) الإمام محمود بن عمر الزمخشري، ***الكشاف***، القاهرة:دار الحديث، م٤ ص٦١٠.

- الرفع من شأن وقت إنزاله

ولكل موضوع من هذين الموضوعين أطراف من المعاني فالموضوع الأول تألّف من ثلاثة أطراف من المعاني: فالطرف الأول: مصدر القرآن (إنا) والثاني: كون القرآن منزّلا (أنزلناه) والثالث: وقت إنزاله (ليلة القدر) تصافحت هذه المعاني فأصبحت موضوعا وهو الإخبار عن القرآن مصدرِه وإنزاله ووقت إنزاله. وأما الموضوع الثاني (الرفع من شأن وقت إنزاله) فقد تألّف من أربعة أطراف من المعاني، فالمعنى الأول: التشويق إلى معرفة ليلة إنزاله ﴿وَمَآ أَدرَىٰكَ مَا لَيلَةُ ٱلقَدرِ﴾، والمعنى الثاني: إيضاح التشويق بتفضيل هذه اليلة على ألف شهر ﴿ لَيلَةُ ٱلقَدرِ خَير مِّن أَلفِ شَهرٍ﴾ والمعنى الثالث: نزول الملائكة فيها بأمر من الله لقضاء كل أمر ﴿تَنَزَّلُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمرٍ﴾ والمعنى الرابع: سلامتها من كلّ شر إلى مطلع الفجر ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطلَعِ ٱلفَجرِ﴾ فهذه المعاني الأربعة تصافحت وتناسقت لبناء الموضوع الثاني وهو الرفع من شأن ليلة القدر؛ فهي ليلة تقتضي عظمتُه أن تُشوَّق النفوسُ إليها، وليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، وليلةٌ تنزل الملائكة فيها، وليلةٌ كلها سلام ونور.

المحور الثالث: تَأَمُّلٌ بَلَاغِيٌّ لمطلع السورة وعلاقته بحركة المعنى

أسلفت الدراسة أن مطلع السورة قوله تعالى: "إِنَّآ أَنزَلنَٰهُ فِي لَيلَةِ ٱلقَدرِ" وأن هذا المطلع مؤلّف من معانٍ ثلاثة: مصدر القرآن، إنزال القرآن، وقت إنزال القرآن، فما علاقة كل من هذه المعاني بحركة المعنى؟ بالنظرة المتدبرة للمعنى الأول يفهم أنه جِيءَ به لإثبات مصدر القرآن، وفي ذلك ردٌّ على الكفار القائلين: "إِن هَٰذَآ إِلَّا قَولُ ٱلبَشَرِ" "أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ ٱكتَتَبَهَا فَهِيَ تُملَىٰ عَلَيهِ بُكرَة وَأَصِيلا" فنفى الله سبحانه وتعالى بهذا المعنى أن يكون القرآن من كلام محمد (ص) أو من كلام أحد من العالمين، إذ كيف يكون القرآن كلام محمد ثم يأتيه فيخطئه في رأيه؟

"وكم يأذن القرآن للبني (ص) في شيء لا تميل نفسه إليه فإذا تلبث فيه يسيرا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد والعتاب القاسي، والنقد المرّ حتى في أقلّ الأشياء خطرا: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبتَغِي مَرضَاتَ أَزوَٰجِكَ" "وَتُخفِي فِي نَفسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبدِيهِ وَتَخشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخشَىٰهُ" "عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعلَمَ ٱلكَٰذِبِينَ""مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَستَغفِرُواْ لِلمُشرِكِينَ وَلَو كَانُوٓاْ أُوْلِي قُربَىٰ مِن بَعدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُم أَصحَٰبُ ٱلجَحِيمِ" "أَمَّا مَنِ ٱستَغنَىٰ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ٦ وَمَا عَلَيكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسعَىٰ٨ وَهُوَ يَخشَىٰ٩ فَأَنتَ عَنهُ تَلَهَّىٰ١٠" أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرةً عن وجدانه، معبّرةً عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتما شيئا لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه "وَمَا هُوَ عَلَى ٱلغَيبِ بِضَنِينٍ"[1] هذا ولا يكون القرآن من كلام البشر لثبوت عجز البشر عن الإتيان بمثله: "قُل لَّئِنِ ٱجتَمَعَتِ ٱلإِنسُ وَٱلجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأتُواْ بِمِثلِ هَٰذَا ٱلقُرءَانِ لَا يَأتُونَ بِمِثلِهِۦ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعض ظَهِيرا" "أَم يَقُولُونَ ٱفتَرَىٰهُ قُل فَأتُواْ بِسُورَة مِّثلِهِۦ وَٱدعُواْ مَنِ ٱستَطَعتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُم صَٰدِقِينَ٣٨ بَل كَذَّبُواْ بِمَا لَم يُحِيطُواْ بِعِلمِهِۦ وَلَمَّا يَأتِهِم تَأوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبلِهِم فَٱنظُر كَيفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ٣٩" فقد ثبت عدم المعارضة على شدة الحاجة وتكرار التحدي، فإذا ثبت هذا ثبت عجز الإنسان عن الإتيان بمثله، فلم

(١) الدكتور عبد الله دراز، النبأ الغظيم، ص١١٩.

يبق للقرآن مصدر غير الله سبحانه وتعالى فالقرآن إلهي المصدر رباني النظم. ولحديث القرآن عن مصدر القرآن أغراضٌ كثيرة، منها: نفي الزيغ والاختلاف عنه قال تعالى: "وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱختِلَٰفا كَثِيرا٨٢" ومنها: إقرار صلاحيّة شريعته لأنها مبنية على العلم الإلهيّ المحيط بكل شيء:"لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيكَۖ أَنزَلَهُ بِعِلمِهِۦۖ وَٱلمَلَٰٓئِكَةُ يَشهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدا١٦٦" وأما حديث القرآن عن مصدر القرآن في هذا المطلع فلبيان عظمة هذا المصدر؛ ليناسب الغرضَ الذي سيقت له السورة؛ وذلك أن مصدر القرآن ذكر في هذا المطلع مقرونا بالعظمة "إنا" ليُضفِي على القرآن عظمةً وفضلا؛ فمنزِّلُه عظيمٌ ولا يصدر من العظيم إلا عظيمٌ؛ فيكون للقرآن فضل عظيم. ومن هاهنا تحرّكت حركة المعنى، وفي هذه النقطة مبعثُها ومنطلقها، وعند هذا الحدّ بدأ سيرُها مُتّجِهةً إلى الغرض، متضمّنةً للعظمة، مُطِلَّةً برأسها نحو الفضل الذي سيقت له السورة. وإذا أضيف المعنى الثاني (إنزال القرآن) إلى ذلك المعنى الأول (مصدر القرآن) أضاءت حركةُ المعنى؛ لأن الإنزال يُشعر بصدور أمرٍ عليٍّ من العالم العلوي إلى العالم السفلي، ولأن الإنزال يقتضي أن المنزّل أعلى: "سَبِّحِ ٱسمَ رَبِّكَ ٱلأَعلَى" "وَهُوَ ٱلقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِۦۚ" "يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوقِهِم"، فإذا أضيفت "العظمة" في المعنى الأول إلى العلو في المعنى الثاني أصبح في نسيج الملطع فضل مقرون إلى فضل وعظمة ملفوفة بعظمة لتضيء حركة المعنى. وأما المعنى الثالث (وقت إنزال القرآن) فبه سارت الحركة سيرا حثيثا قاصدة مبلغها، الذي هي ليلة القدر، وليلة البركة، وليلة التقدير السنوي التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وليلة نزول الملائكة، وليلة السلام، فوقت إنزال القرآن وقت له فضل عظيم على غيره؛ فبهذا يجتمع للقرآن فضل المصدر، وفضلُ النوع، وفضل الوقت، ومجموع هذا الفضل يقول في صوت واحد: إن للقرآن فضلا عظيما، وإنه الحق المبين وحبل الله المتين، فالمطلع بمعانيه الثلاثة مَبْعَثُ الحركة، وموضعُ سيرها نحو غايتها.

ومما يشتمل عليه هذا المطلع من الإشارات البديعة إلى فضل القرآن ضميرُ النصب في "أنزلناه" ذلكم الضميرُ الذي ذُكر قبل ذكر مرجعه فنطق على سكوته بالفضل والعظمة، وشهد بأن للقرآن فضلا عظيما يغنيه عن ذكره قبل إضماره.

المحور الرابع: التشويقُ إلى ليلة القدر وعلاقته بحركة المعنى

التشويق إلى ليلة القدر في قوله تعالى "وَمَآ أَدرَىٰكَ مَا لَيلَةُ ٱلقَدرِ" مدخلٌ إلى الموضوع الثاني ومفتاحٌ به فُتِح، والتشويق في اللغة تهييج الشوق[1] وفي اصطلاح البلاغيين يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "من المركوز في الطباع أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه ومعاناه الحنين نحوه كان نيله أحلى، وبالمزيّة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضن وأشغف، ولذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظماء"[2] ا.هـ ويُفهَم من هذا الكلام أن التشويق إيراد المعنى على صورة تجعل السامع يشتاق إلى تمامه، والظفر بمضمونه ونيله بعد طلبه، والمعنى إذا أُفرِغ هذا الإفراغَ وقع في النفس أحسنَ موقع وكان له تأثيرٌ بالغ؛ لأنّ النفس البشرية ترتاح إذا خُودِعت عن الفائدة ثم وُفِيَّت، وتسكن للإيضاح بعد الإبهام، وترغب في طلب التفصيل بعد الإجمال؛ لأنها عند الإجمال والإبهام تكون في كامل عُدَّتها لتلقِّي التفصيل، فإذا أُلقي إليها دخل دخولَ المأنوس به والمهيَّأ له والمطمئنّ إليه "وليس تلقي الخبر بغتة غفلا مثل تلقّيه بعد التنبيه إليه والتقدمة له؛ وذلك أن الشيء إذا

(١) ابن منظور، ***لسان العرب***، بيروت: دار صادر، ط٣ (١٤١٤) مادة ش و ق ج١٠، ص١٩٢

(٢) عبد القاهر الجرجاني، ***أسرار البلاغة***، القاهرة: مطبعة المدني، الطبعة الأولى، ص ١٣٩.

أُضمر ثم فُسّر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة إضمار"[١] والتشويق مسلك من مسالك التفصيل بعد الإجمال، ومنحى من مناحي الإيضاح بعد الإبهام؛ لأن النفس بعد التشويق تكون في كامل الاستعداد لمعرفة المشوّق إليه وتتهيأ لمعرفة تفسيره بعد إضماره حتى إذا ما دخل عليها دخل دخول المأنوس به والمطمأن إليه، فقوله تعالى: "وَمَآ أَدرَىٰكَ مَا لَيلَةُ ٱلقَدر" تشويقٌ إلى معرفة هذه الليلة، وإجمال يعقبه التفسير، وإبهام يأتي بعده الإيضاح. وعند هذا التشويق تحركت حركة المعنى حركتين مختلفتين في آن واحد، تحركت بحركة نحو خلفها وبأخرى نحو أمامها، وتقهقرت إلى خلفها ناظرةً إلى أمامها؛ وتفسير ذلك أن الحركة رجعت قليلا إلى الخلف بالتشويق إلى فضل ليلةٍ تقدَّم ذكرُها بالفضل والعلوّ، وتقدّم ذكرُها إلى جانب عظمة المصدر وعلوّ الإنزال؛ فثبت لها الفضل والعظمة والعلوّ، وإذ قد ثبت وتقدّم لها فضلٌ فالتشويق إلى فضل آخر تراجعٌ إلى الخلف وامتدادٌ نحو الأمام، تراجعٌ إلى السابق لوصله باللاحق، تراجعٌ إلى كلام سابق وامتدادٌ إلى إتمامه بكلام لاحق وهذا أشبهُ شيءٍ بالقطع والاستئناف الذي قال عنه الجرجاني: "يبدؤون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر"[٢] فالحركة بدأت بذكر ليلة القدر، وقدّمت بعض أمرها وفضلها ثم استأنفت كلاما آخر بالتشويق؛ لتسرد فضلا آخر فوقع التشويق نقطة القطع والاستئناف معا. وحين انبعثت الحركة بالمطلع كانت ضوء خافتا فَزِيدَ عليه بهذا التشويق ضوءٌ آخر يكون بمثابة التمهيد لإشراق الحركة، ويلاحظ أن الحركة ارتدّت لتتقدم، وتراجعت لتمهّد؛ ومن هنا تتّضح

(١) عبد القاهر الجرجاني، ***دلائل الإعجاز***، القاهرة: مطبعة المدني، الطبعة الثالثة، ص١٣٢ بتصرف.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، ***دلائل الإعجاز***، ص ١٤٨.

العلاقة بين التشويق وبين حركة المعنى، وأن التشويق مهاد للحركة إلى إشراقها، وأنه الجسر المأمون الذي عبرت عليه الحركة من الضوء الخافت إلى الإشراق اللامع.

المحور الخامس: إيضاح المشوَّق إليه وعلاقته بحركة المعنى

الخبر – كما سبق – إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجّه إلى ما بعد ذلك؛ فإذا ألقي كذلك تمكّن فيها فضل تمكّن وكان شعورها به أتم[1] ولقد أُوضِح إبهام التشويق، وفُصِّل إجماله، وفُسِّر إضماره بالإخبار عن خيريّة هذه الليلة وأفضليّتها على ألف شهر " لَيلَةُ ٱلقَدرِ خَير مِّن أَلفِ شَهر" ثم بُيِّن معنى هذه الخيريّة بذكر شيء مما تشتمل عليه، وهو الإخبار عن تنزّل الملائكة فيها بقضاء الله "تَنَزَّلُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمر" والإخبار عن سلامتها من كل شر "سلام هي حتى مطلع الفجر" فنحن – أمام إيضاح المشوّق إليه – بين يدي معان ثلاثة: الأول: "لَيلَةُ ٱلقَدرِ خَير مِّن أَلفِ شَهر"، والثاني: "تَنَزَّلُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمر"، والثالث: "سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطلَعِ ٱلفَجرِ"، ويلفت النظر في المعنى الأولِ خروجُه على مقتضى الظاهر حيث وُضِعَ المُظهَر موضعَ المضمر، إذ التعبير العادي أن يقال: "هي خير من ألف شهر" لِتقدُّم ذكر ليلة القدر، ولكن عُدل عن مقتضى الظاهر فوُضِع "ليلة القدر" موضع "هي" لتقرير هذا المظهر (ليلة القدر) وتمكينه في القلوب، فإيثار المظهر على المضمر تمكينٌ لهذه الليلة في القلب وتقريرٌ لفضائلها، ويُفهم من هذا التقرير العنايةُ بالمقرَّر؛ لأنّه إذا لم يكن لهذه الليلة فضلٌ فلا فائدة في العناية بتقريرها في القلوب؛ ومن ثَمَّ يرمي وضعُ المظهر موضع المضمر إلى بيان فضل هذه الليلة، وهكذا تَرَى الفضلَ يُطِلُّ عليك من صدر هذه الآية ليبلغ قمته عند النص على خيرية هذه الليلة على

(١) الخطيب القزويني، ***بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح***، القاهرة: مكتبة الآداب، ص ٣٤٦.

ألف شهر، فعند ذلك تجلت الإشراقات الإلهية في حركة المعنى لتُشرِقَ إشراقَ الشمس في ضحاها؛ وذلك أنه إذا كان لهذه الليلة بسبب نزول القرآن فيها زيادةُ فضلٍ على ألف شهرٍ، وكان الخير غامرًا فيها فللقرآن الذي سبّب هذه الخيراتِ فضلٌ لا يُعرَف كنهُه عظيمٌ، وشأنٌ لا يُجارى كبيرٌ، ومنزلٌ عند ربّه رفيعٌ، لأنه الجامع للخيرات، ولأنه الفضل، ولأنه النور، ولأنه الذكر العظيم "وَهَٰذَا ذِكر مُّبَارَكٌ أَنزَلنَٰهُ أَفَأَنتُم لَهُ مُنكِرُونَ" "قُل لَّئِنِ ٱجتَمَعَتِ ٱلإِنسُ وَٱلجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأتُواْ بِمِثلِ هَٰذَا ٱلقُرءَانِ لَا يَأتُونَ بِمِثلِهِۦ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعض ظَهِيرا". وبمتابعة هذه الحركة واستكشاف تحرّكها، ومراقبة سيرها تبيّن أنها تجلّت عند النصّ على خيرية هذه الليلة وأفضليتها على سائر الليالي؛ لتعكس في وضوحٍ عظمةَ القرآن الذي زامن نزولُه هذه الليلةَ فباركها، ولتعلن بأعلى الصوت فضلَ القرآن على سائر الكلام، كما كان لليلة القدر فضل على سائر الليالي.

وأما المعنى الثاني (تَنَزَّلُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمر) فتمامٌ للمعنى الأول؛ لأنه بيانٌ لسرّ أفضليّة ليلة القدر على ألف شهر، وذكرٌ لصنف من أصناف خيراتها، وصيغةُ "تفعّل" تحمل دلالة الكثرة؛ فالملائكةُ تنزل بالكثرة، وذِكر الروح بعد ذكره مضمونا في الملائكة ذكرٌ للخاص بعد العام وهذا يفيد أن للروح فضلا يأبى إدراجَه في الملائكة، ويقتضي النصَّ عليه وتمييزَه بالذكر، والملائكةُ لا تتنزل بإرادة منهم وإنما بأمر من ربهم، ولا تتنزل عبثا وإنما تتنزل لقضاءٍ من ربهم. فكل ما في إطار هذا المعنى من الدلالات والإشارات يتظاهر لبيان ما لهذه الليلة من خير وفضل لا يوجد في غيرها من الليالي، ويبدو بكلِّ وضوح أن إلباس هذه الليلة ثوبَ الفضل والعظمة كان بسبب التنويه بفضل القرآن الذي بارك هذه الليلةَ.

وأما قوله تعالى : "سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطلَعِ ٱلفَجرِ" فهو المعنى الثالث، وهو الخاتمة، وعنده حطّت الحركةُ رحالَها، وهو الآخرُ بيانٌ لخيرٍ من خيرات هذه الليلة، وذكرٌ لصنفٍ من أصنافها، وهو سلامتها من كل شر؛ لتكون خيرا محضًا، فبهذه المعاني الثلاثة وضّح التشويق. ولقد تجلّت حركة المعنى مشرقةً

بإيضاح التشويق في قوله تعالى: "لَيلَةُ ٱلقَدرِ خَير مِّن أَلفِ شَهر" ثم أخذت الحركة تتحدَّر عند قوله تعالى: "تَنَزَّلُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا" تحدّرت محتفظةً بالنفحات السائدة في السورة كلها، وبيان تحدِّرها أنّ هذه الآية كانت بمثابة تفسيرٍ للخير الوارد في الآية التي أشرقت الحركةُ عندها، والخيرُ شديدٌ وقعُه إذا أُطلِق جملةً ولم يُفصَّل؛ لأن النفس في معرفة كنهِه تذهب كلَّ مذهب حتى إذا ما فُصِّل بذكر شيءٍ من أصنافه ارتاحت النفس، وبهذا الارتياح والهُدوء تحدّرت الحركةُ وهي تحتفظ بنفحات الفضل والعظمة التي هي السائدة في السورة كلّها، ثم بعد تحدُّر الحركة حطَّت رحالهَا عند قوله تعالى: "سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطلَعِ ٱلفَجرِ" وبتأمّل هذه الخاتمة يبدو أنها تحمل السلام الممدود إلى مطلع الفجر؛ لتُجمِل رسالة القرآن التي هي السلام والنور، السلامُ من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان، وإذا كان المطلع ألمح إلى فضل القرآن فإن الخاتمة أجملت رسالة القرآن فَتَشَاكَلَ المطلع والخاتمة وتعانقا. "كِتَٰبٌ أَنزَلنَٰهُ إِلَيكَ لِتُخرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ".

وبجميع ما تقدّم يتبيّن أنّ حركة المعنى في سورة القدر انبعثت ببيان مصدر القرآن، وسارت سيرا حثيثا ببيان نوعه ووقت إنزاله، ثم عَبَرَتْ بأسلوب التشويق إلى الإشراق في بيان الخيرية، وتحدّرت عند الإيضاح ثم حطّت رحالها عند تلخيص رسالة القرآن التي هي السلام من ظلمات الجهل إلى فجر العلم؛ فأبْحَرَت من شاطيء المطلع إلى شاطيء الخاتمة فقطعت السير إلى الأمام وإلى الخلف في خطوة واحدة لتصل نقطة المطلع بنقطة الخاتمة، ويبدو خلالَ الدراسة تعانُقُ نظم السورة، وَتآزُرُ أجزائها، وتماسكُ موضوعاتها، والتناسبُ بين معانيها، والتوافق بين أطرافها، والتناسل بين قضاياها، وكل أولئك يدل دلالةً واضحة على أن القرآن معجز بنظمه وبيانه "كِتَٰبٌ أُحكِمَت ءَايَٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَّدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ".

الخاتمة

في متابعة صابرة تناولتِ الدراسةُ حركةَ المعنى داخل سورة القدر، وراقبت سيرها، وتبيّنت مرورها في محطّاتها المختلفة كاشفةً للعلاقة العضوية بين المعاني، وموضِّحةً لحسن إحكام النظم القرآني، ودقّة تماسك أجزائه. ولقد توصّلت الدراسة إلى أن غرض السورة التنويهُ بفضل القرآن، وأن السورة تناولت موضوعين اثنين: الإخبار عن القرآن، والإخبار عن رفع شأن ليلة القدر، وعلى هذين الموضوعين بُنيَ غرضُ السورة، كما توصّلت الدراسة إلى أن الموضوع الأول تألّف من الإخبار عن مصدر القرآن وعن إنزاله، وعن وقت إنزاله، وأن الموضوع الثاني تألّف من التشويق إلى ليلة القدر وإيضاحه ببيان خيريّة هذه الليلة، ونزول الملائكة فيها، وسلامتها من كلّ شرّ، ثم كشفت الدراسةُ القناعَ عن علاقة كل موضوع بحركة المعنى، وعن موقعِه من خطّ سيرها، وعن التآلف العضوي بين هذين الموضوعين، وأنّ الحركة بدأت بالمطلع، وتحركت بحركتين مختلفتين في آن واحد عند التشويق إلى ليلة القدر، وأشرقت إشراق الشمس في ضحاها عند بيان خيرية هذه الليلة على ألف شهر ثم تحدرت عند شرح معنى الخيرية، وحطّت رحالها عند إجمال رسالة القرآن في قوله تعالى: سلام هي حتى مطلع الفجر. هذا وتوصي الدراسة الباحثين المشتغلين في الحقل البلاغي أن يولّوا وجوهم شطر النظم القرآني فإنه لم يزل فيه كما يقول شيخنا أبو موسى أبوابٌ لم تطرق كما ينبغي؛ ليُثْروا المكتبة البلاغيّة بالفرائد من بحوثهم.

وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، دار الحديث، القاهرة، ط١ (٢٠٠٦)
- أحكام القرآن، القاضي محمد بن العربي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣ (٢٠٠٣)
- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى،(١٩٩١)
- أسباب النزول، أبو الحسن علي الواحدي، السعودية: دار الإصلاح –الدمام، ط٢ (١٩٩٢)
- إعجاز القرآن، **القاضي** أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، دار المعارف، القاهرة، ط٧ (٢٠٠٩)
- البحر المحيط، أبو حيّان محمد بن يوسف، بيروت: دار الفكر (١٤٢٠)
- بغية الإيضاح، الخطيب القزويني، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، (٢٠٠٩)
- تاج العروس، السيد محمد المرتضى الزبيدي، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط١ (٢٠٠١)
- التحرير والتنوير، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس
- حركة المعنى في سورة الفجر، الدكتور إبراهيم الهدهد، مكتبة الإيمان القاهرة، ط١ (١٩٩٨)
- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني القاهرة، ط٣ (١٩٩٢)
- علاقة المطالع بالمقاصد، الدكتور إبراهيم الهدهد، مكتبة الإيمان بالقاهرة، ط١ (٢٠٠١)

- الكشاف، الإمام محمود بن عمر الزمخشري، دار الحديث، القاهره
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط٣ (١٤١٤)
- مباحث في علوم القرآن، الشيخ مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١١ (٢٠٠٠)
- مدخل إلى البحث البلاغي، الدكتور إبراهيم الهدهد، مكتبة الإيمان القاهرة، ط١ (٢٠١٥)
- المعجم الوسيط، نخبة من علماء اللغة بمجمع اللغة بالقاهرة، مكتبة الشروق – القاهرة، ط٥ (٢٠١١)
- من أسرار التعبير القرآني، الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة، ط٣ (٢٠١٣)
- النبأ العظيم، الدكتور عبد الله دراز، مكتبة الإيمان القاهرة، ط١ (٢٠١١)
- نظم الدرر، الإمام برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٩٩٥)